

التدخل المريني بالأندلس ملاحظات أولية

د. محمد رزوق

كلية الآداب - عين الشق

الدار البيضاء - المغرب

تحفل مصادر العصر الوسيط بتفاصيل عديدة حول التدخل المريني بالأندلس فتورد الأحداث في شكلها العام طبقا لتصوّر مؤرخيها لذلك، كما أنجزت بعض الدراسات حول هذا التدخل⁽¹⁾، لكن في اعتقادنا فإن المسألة يجب أن توضع في إطار مجال جغرافي أوسع، هو مجال الغرب الاسلامي، إذ أن الأحداث كانت مرتبطة إلى حد كبير، وانطلاق من ذلك سنطرح عدّة تساؤلات تمكّننا من مقارنة الموضوع بشكل أكبر :

(1) انظر مثل :

-Viguera, Maria Jésus, "La intervención de los benimerines en Al-Andalus" in Relaciones de la Peninsula Ibérica con El Magreb Madrid, 1988, P.P.237-247

-Rachel, Arié, l'Espagne musulmane au temps des nasrides, P.P 68 -118.

محمد كمال شبانة، يوسف الأول ابن الأحمر سلطان غرناطة، القاهرة، 1969

- السيد عبد العزيز سالم، أحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الاسلامية، بيروت ، 1969.

- علي حامد الماحي، المغرب في عهد السلطان أبي عنان المريني، الدار البيضاء، 1986.

- في أي إطار جرى التدخل المريني بالأندلس ؟

- ما هي الدوافع الحقيقية للتدخل المريني بالأندلس ؟ هل الأمر يتعلق فقط بالجهاد، كما

تحاول مصادر العمر الوسيط أن تؤكد، أم أن هناك جوانب مسكوت عنها في هذا التدخل ؟

- كيف نفهم تعامل مملكة غرناطة مع القشتاليين و المرينيين في آن واحد ؟ ونفس الشيء

نطرحه بالنسبة للمرينيين : كيف نفهم تعاملهم مع الأراجونيين وبنو الأحمر في آن واحد.

1- إطار التدخل المريني بالأندلس :

يجرنا هذا السؤال إلى الحديث عن مسألة الحدود، أي مفهوم الحدود لدى الأندلسيين

والمغاربة على حد سواء، هل الأمر -مثلا- كان على غرار ما نفهمه اليوم : أي تقديم المساعدة

من طرف دولة إسلامية لدولة إسلامية أخرى ؟

نبادر إلى القول بأن فكرة الحدود السياسية بين الممالك الإسلامية كانت غائبة في مصادر

العصر الوسيط، فالحدود الموجودة هي الحدود بين الممالك الإسلامية والممالك المسيحية بشمال

الأندلس، وهي التي كانت تعرف بالثغور وهي عبارة عن سلسلة من القلاع والحصون تقوم على

شكل خطوط ممتدة بين التراب الإسلامي والمسيحي. فالمجال الجغرافي بالنسبة لمؤرخي العصر

الوسيط كان مجالا جغرافيا واحدا، فهذا ابن حيان يقول : " الغرب (الإسلامي) وما يليه " (2).

وهناك شهادات أخرى كثيرة تؤيد ما ذهبنا إليه، بأن الأمر يتعلق بمجال واحد وليس

بمجالات متعددة.

وطبيعي أن يشمل هذا المجال عدة أقاليم لكنها ليست مستقلة عن بعضها البعض وإنما

تكون منطقة جغرافية واحدة في إطار حضاري واحد، وهي بهذا المفهوم إذن تمتد من الأندلس

شمالا إلى إفريقيا الغربية جنوبا، يقول صاحب الحلل الموشية في هذا الصدد : " فالمسلمون حيثما

كانوا أخوة، لا سيما من بهذه الجزيرة ومن بتلك العدو " (3).

نستنتج من كل هذا إذن أن التدخل المريني اعتبر دائما كحركة داخلية ولم يكن حركة

أجنبية بالنسبة لمؤرخي الفترة خاصة وأن الأندلسيين قاموا أيضا

بمبادرات مماثلة في عهد قوتهم خلال عهد الدولة الأموية، إذ كانوا يطمحون باستمرار -

أبان ضعف المغرب - إلى بسط هيمنتهم عليه، وقد تمكّنوا فعلا من ممارسة نوع من الهيمنة على

(2) المقتبس ، بيروت، 1965، ص 26.

(3) الحلل الموشية، ص 20.

جزء من شمال المغرب منذ عهد عبد الرحمن الناصر إلى قيام ملوك الطوائف⁽⁴⁾، كما لا ننسى أيضا أن بني الأحمر أنفسهم كانوا يتدخلون في شؤون بني مرين بالمغرب، وذلك بتأييد هذه الشخصية أو تلك، كما لا ننسى أيضا وجود جالية أندلسية مهمة بالمغرب منهم مستشارون للبلاط، وقادة عسكريون سواء في الجيوش البرية أو البحرية⁽⁵⁾، وتنقلات عدد من الشخصيات الأندلسية، وتوليها لمناصب عديدة سواء بغرناطة أو فاس.

2- الجوانب المسكوت عنها في التدخل المريني بالأندلس :

لا ننسى أن التدخل المريني بالأندلس كان متزامنا مع التدخل المريني في أقطار المغرب العربي، وذلك في إطار الحركة الحدودية التي كان المرينيون يسعون باستمرار إلى تحقيقها⁽⁶⁾ مما يجعلنا نتساءل لماذا هذا الإصرار المريني على التحرك بهذا الشكل وفي آن واحد بالأندلس والمغرب العربي ؟

نشير إلى أن المصادر المرينية تضع التدخل المريني بالأندلس في إطار الجهاد، أي أن التدخل يصبح ضروريا بفعل إلزامية الجهاد بالنسبة للشريعة الإسلامية، وفصلت ودفت فيما يتعلق بمسألة الجهاد بالأندلس مما يجعلنا نتساءل عن الدوافع الحقيقية التي جعلت المصادر المرينية تتوجه بهذا التوجه .

لن نجد صعوبة كبيرة في تفسير ذلك، فهذه المصادر ألقت بتشجيع وإيحاء من السلطة المرينية، فلا غرابة أن نجدها تعمل على إرجاع المرينيين إلى الأصل العربي، وتشحنها بمختلف الحجج لتبرير شرعية حكمهم، وتبحث لهم باستمرار عن هوية حضارية، خاصة وأنهم لم يكونوا يتوفرون على مذهب معين يرتكزون عليه في دعوتهم، كما كانوا يشعرون - بفعل انتمائهم القبلي - بالفارق الكبير بينهم وبين سكان فاس، ذات الارث الحضاري العريق.

فالجهاد، يدخل في إطار تركية مشروعية حكمهم أمام المغاربة، فقد كان الجهاد بمثابة ورقة دفاع أمام الشعب، خاصة وأن الأوضاع الداخلية بالمغرب لم تكن على ما يرام، إذ أن المغرب فعلا كان سائرا نحو التدهور كما سجل ذلك ابن خلدون⁽⁷⁾، ومما يؤكد ذلك، فرض ضرائب جديدة ووقوف عدد من العلماء ضد هذه الضرائب بفعل ما تلحقه من ضرر، وبحكم أنها غير شرعية وبالتالي فهي غير مقبولة، سواء من حيث جبايتها أو طريقة تحصيلها، فمسألة الجهاد بالأندلس

(4) انظر محمد رزوق، الاندلسيون وهجراتهم إلى المغرب، ص 26.

(5) المصدر السابق، ص 40- 48.

(6) محمد القبلي، ملاحظات حول التجارب الحدودية الوسيطية ببلاة المغرب الكبير، مقال بمجلة كلية الآداب بالرباط، العدد التاسع، 1986، ص 7- 22.

(7) المقدمة، ص : 32- 33.

إذن كانت ورقة ضرورية لاسكات صوت المعارضة أي أن الدولة في حاجة إلى الأموال باستمرار للجهاد ، بالإضافة إلى نقطة أساسية في هذا الموضوع أيضا وهي شغل الرأي العام المغربي آنذاك بأحداث الجهاد في الأندلس ، وبالتالي عدم التفكير في القيام بأية أعمال مناوئة لان المناوئة في أوقات الجهاد تعتبر خيانة، وهكذا فالجهاد بهذه الصورة استخدم إذن لتهدة الرأي العام الداخلي وطمأنته.

ونشير إلى أن هناك علاقة بين الجهاد بالاندلس وتوحيد أقطار المغرب العربي، إذ أن المرينيين قدموا هذه الحركة على أنها تدخل في إطار توحيد الغرب الاسلامي الذي يحتاج إلى خليفة واحد، وفي نفس الوقت تجميع الامكانيات المادية بفعل السيطرة على المنافذ التجارية، بحكم الدور الذي تلعبه المنطقة كصلة وصل بين السودان (افريقيا الغربية ودول البحر الأبيض المتوسط).

وعلى العموم، نعتقد بصفة عامة، أن للأوضاع الداخلية بالمغرب دورا كبيرا في مسألة الجهاد بالاندلس، ولا يتعلّق الأمر بالعامل الديني فقط.

3- الدبلوماسية كشكل من أشكال المحافظة على سلامة حدود مملكة غرناطة :

إن وجود مملكة غرناطة وسط ثلاث قوى كبيرة : قشتالة، أراجون، المغرب جعلها تتعامل بحذر وبدبلوماسية متأنية مع جميع هذه القوى، لقد كانت غرناطة تخشى هذه الأطراف جميعا، وإن كان تخوفها من قشتالة وأراجون لا يحتاج إلى مبرر، فإن تخوفها من المغرب ربما يشير بعض التساؤل : كيف تخشى من قوات أتت لحمايتها من ممالك مسيحية ؟ إن الأمر هنا واضح أيضا، فقد كانت غرناطة تخشى من أن يفعل بنو مرين ما فعله المرابطون والموحدون من قبل⁽⁸⁾، خاصة وأن المشروع المريني - كما رأينا - لم يكن ليكتفي بتوحيد أقطار المغرب بل كان من بين أهدافه أيضا ضم الأندلس إلى هذه الوحدة، وهذا ما عبر عنه ابن خلدون صراحة عندما قال : " وكان أبو عنان يؤمل في ملك الأندلس " ⁽⁹⁾.

وقد رأى السلطان أبو عنان المريني أنه من الصعب عليه تنفيذ مشروعه مادام هناك حلف قائم بين غرناطة وقشتالة لهذا حاول أن يقنع سلطان غرناطة بالتخلي عن هذا الحلف الذي جعله يدين بالتبعية لملك قشتالة ويدفع له الجزية غير أن محمدا الخامس رفض هذا العرض لانه كان يجنح دائما إلى مسالمة قشتالة بفعل شكه في نوايا السلطان المريني عندئذ رأى أبو عنان

(8) أ. الناصري : الاستقصا، 2 : 24، 25.

(9) العبر، 7 : 304.

أن يتحالف مع بدرو الرابع ملك أرجوان الذي رحب من جانبه بهذا المشروع لأنه كان فعلا في حرب مع قشتالة، ووقع الاتفاق بين الملكين بمدينة سرقسطة في يوليو 1357. وهذا الاتفاق يمكنهم من الوقوف سويا أمام الخطر الذي يهددهم من عدوهم المشترك ألا وهو مملكة قشتالة.

وخلاصة القول فإن غرناطة لم تلتزم في سياستها بجانب واحد، بل كانت تتغير وتتبدل في حرص وحذر حسب الظروف الخارجية المحيطة بها. فتارة تقترب من قشتالة ضد المغرب وتارة أخرى تقترب من المغرب ضد قشتالة وأراجون، وهكذا، فهذه السياسة الماهرة التي سلكتها غرناطة هي التي مكنتها من الحفاظ على حدودها لمدة لا بأس بها، إذا ما قيسَت بإمكانات غرناطة العسكرية.

بقي لنا أن نتساءل بعد هذا ما موقف علماء غرناطة من سياسة سلاطينهم وسوف نأخذ نموذجا واحدا له دلالاته وهو ابن عاصم الغرناطي صاحب كتاب جنة الرضى فهو يرفض بتاتا التعامل مع الممالك المسيحية، ويحذر من هذا التعامل على أساس أنها تستخدم هذه الوسائل السلمية في استمالة المسلمين للحصول - بهذه الوسائل الدبلوماسية - على ما لم تستطع الحصول عليه بالقوة.

ويرى أن السبب الذي أدى إلى هذا الوضع هو الخلاف حول السلطة فاتحاد المسلمين في هذا الظرف واجب، خاصة وأن الرقعة الجغرافية ضيقة ولا تحتل أكثر من حاكم.

ونعتقد أن حكام غرناطة قد وجدوا من العلماء من يؤيدهم ويبرر شرعية تعاملهم مع الممالك المسيحية، خاصة وأن أصواتا عديدة بدأت تحذر من الضياع، وتدعو إلى التشبث بالدين.

4- السياق التاريخي للتدخل المغربي بالأندلس :

مرّ التدخل المريني بالأندلس بمراحل عديدة، تبعا للأوضاع داخل الأندلس وداخل المغرب على حدّ سواء، وقبل استعراض مراحل هذا التدخل سنحاول أن نفحص إمكانيات هذا الجيش ومدى استعداداته لمساعدة الاندلسيين بغرناطة.

نشير أولا إلى أن هذا الجيش يتكوّن من جيش نظامي يضمّ عناصر مختلفة من مغاربة (زناتة وعرب) وأندلسيين، وغيرهم، كما يتكوّن أيضا من فرق المتطوعين، وقد لعب هؤلاء دورا خطيرا في عمليات الجهاد بالأندلس، إذ بلغ عدد الذين عبروا منهم إلى الاندلس سنة 1285 : 21000 ، فيهم 13000 من المصامدة، والباقي (أي 8000 متطوع) من قبائل مغربية أخرى ⁽¹⁰⁾، أمّا من حيث الأسطول، والذي كان ضروريا في عمليات العبور إلى الأندلس أو

(10) محمد المنوني ، وراقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، ص : 72.

العمليات الحربية ضد السفن الاسبانية، فقد كان السلطان أبو يوسف يعقوب هو أول المهتمين به في الدولة المرينية، وينسب إليه بناء دار الصناعة بسلا على يد المهندس الأندلسي محمد بن علي بن عبد الله الأشبيلي، كما اهتم السلطان يعقوب بتحسين بعض القواعد البحرية، وجاء بعد السلطان يعقوب ولده يوسف الذي سار على نهج سياسة والده، على أن البحرية المرينية لن تبلغ ذروتها إلا في عهد السلطان أبي الحسن المريني (1331 - 1348)، فيروي ابن خلدون أن السلطان المذكور استكثر من بناء الأساطيل حتى بلغ مجموعها مثل عدة النصرانية وعديدهم⁽¹¹⁾، هذا ولم يتردد أبو الحسن في الاستعانة بخبرة الملاحين الجنوبيين في تنظيم بحريته حتى يضارع بها بحرية مملكتي قشتالة وأراجون. ولقد خاض السلطان أبو الحسن بأسطوله معارك بحرية عديدة ضد أساطيل أراجون وقشتالة انتصر في بعضها وانهزم في البعض الآخر وكلها تدخل في نطاق الصراع حول السيطرة على مضيق جبل طارق⁽¹²⁾.

ولن تكتمل هذه النقطة إلا باستعراض :

الامكانيات البحرية لمملكة غرناطة :

وهبت الطبيعة مملكة غرناطة جبالا شامخة مثل جبال شليير Sierra Nevada والبشرات AL pujarras التي سهلت مهمة الدفاع عنها، كما وهبتها أيضا ساحلا طويلا يمتد من المرية شرقا إلى جبال طارق والجزيرة الخضراء جنوبا، وهذا جعلها - رغم صغر حجمها - دولة بحرية من دول البحر المتوسط، وقد أعطانا المؤرخ المعاصر للفترة ابن فضل الله العمري وصفا قيما لأسطول غرناطة ونشاطه وقواعده في هذه المنطقة⁽¹³⁾.

وبرز من أبناء هذه البلاد البحرية قادة مهرة تولوا قيادة الأسطول الغرناطي والمغربي أيضا، ونذكر على سبيل المثال بني الرنداحي⁽¹⁴⁾ في المرية الذين استمرت في بيتهم هذه الخطة منذ أواخر أيام الموحدين، وبرز منهم شخصيات متعددة في المراجع الاسلامية. وقد أمدنا ابن

(11) ابن خلدون : المقدمة ، ص : 256.

(12) انظر :

García Fernandez, Manuel, "Las relaciones castellano-mariniés en Andalucía en Tiempos De Alfonso XI. La participación norte africano en la guerra por el control del Estrecho, 1312-1350, in Relaciones de la Peninsula Ibérica con el Magreb, P.P. 249-273.

(13) ابن فضل الله العمري، كتاب مسالك الايصار، الجزء الخاص بوصف افريقية والأندلس، ص 44-50 وكذلك الفلقشندي، صبح الاعشي ، 5 : ص 217 وما بعدها.

(14) السيد عبد العزيز سالم، أحمد مختار العبادي، المصدر السابق ص : 305.

الخطيب بمعلومات عن بحارة الأسطول ومثال ذلك اشارته إلى اهتمام الدولة بزيادة أجورهم على أيامه (15).

أمّا عن سياسة غرناطة البحرية، فكانت مرتبطة بسياستها العامة التي سبق أن رأيناها في نقطة سابقة، فهي سياسة تعتمد المهارة والمرونة في التعامل. لقد كانت غرناطة تمتلك قوة بحرية منظمة قادرة نسبياً على حماية سواحلها وتجارتها بل وإمداد جارتها قشتالة ببعض وحداتها البحرية أثناء حروبها مع أراجون، إلا أن غرناطة مع ذلك كانت دولة صغيرة محدودة القوة والموارد والامكانيات، ومحاطة بدول تفوقها عدّة وعدداً مثل أراجون وقشتالة والبرتغال والمغرب. لهذا كانت سياستها - كما قلنا - تعتمد أولاً على المهارة الدبلوماسية تجاه الدول المحيطة بها، وعدم التورّط في خوض قتال خطير بمفردها، ثم على الاستعانة بقوة جيранها المغاربة عندما تضطرها الظروف إلى مجابهة أعدائها المسيحيين في ميدان القتال براً وبحراً. وهذا الموقف جعل غرناطة تحرص دائماً على أن يكون مضيق جبل طارق مفتوحاً أمام النجدة المغربية، وبعيداً عن السيطرة المسيحية كي يظلّ اتصالها بالعدو المغربية آمناً مستمراً. وقد اضطرت غرناطة في هذا السبيل إلى التنازل أحياناً للمغرب عن قواعد الجنوبية المطلّة على المضيق مثل جبل طارق والجزيرة الخضراء وطريف ورندة ليتولّى بنفسه مهمة الدفاع عن تلك القواعد، واتخاذها رأس جسر للتدخل في وقت الجهاد. ولقد أدركت كلّ من قشتالة وأراجون أهداف تلك السياسة، فحاولت من جانبها فرض سيطرتها على المضيق واحتلال قواعد، كي تحول دون اتصال المغرب بالأندلس، ومن هنا نشأ صراع طويل بين جميع هذه القوى حول السيطرة على مضيق جبل طارق (16).

مراحل التدخل المريني بالأندلس :

لأسباب منهجية، ورغبة منها في تبسيط مراحل هذا التدخل سنحاول أن نستعرض تدخل كل سلطان مريني في الأندلس على حدة، وذلك في خطوطه العامة وبدون الدخول في التفاصيل والتدقيقات المتشعبة، فمقصودنا دائماً يبقى أخذ صورة تقريبية لهذا التدخل، لننتهي في الأخير إلى عرض نتائج هذا التدخل سواء على صعيد مملكة غرناطة أو على صعيد المغرب نفسه.

أولاً : تدخل أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق (1258 - 1286) :

تدخل هذا السلطان بعد أن أنهى مشاكله بالمغرب والتي دامت حوالي 17 سنة، وتذكر له

(15) الاطاعة ، 2 : 30 - 31 .

Rachel Arié, l'Espagne musulmane au temps des nasrides, pp. 265-276.

(16) السيد عبد العزيز سالم، أحمد مختار العبادي، المصدر السابق ص : 311-370.

الجواز الأول : كان تلبية لنداء السلطان محمد بن الأحمر المعروف بالفقيه (1272 -

1322) لمُد يد العون له ضد أطماع الفونسو العاشر ملك قشتالة⁽¹⁷⁾، فنهض من فاس سنة 1274 متجها إلى طنجة ومنها إلى طريف بأسطول مكون من عشرين سفينة عليها 5000 جندي بقيادة ولده ابن زيان والذي تمكّن من إلحاق الهزيمة بالقوات المسيحية⁽¹⁸⁾، وفي سنة 1275 دخل الأمير أبو يوسف قصر المجاز لتنظيم جيوشه وقد تنازل له ابن الأحمر عن بعض الثغور الأندلسية مثل رندة Ronda وطريف tarifa لتكون بمثابة رأس جسر لانزال جنوده في الأندلس⁽¹⁹⁾، ثم عبر أبو يوسف إلى الأندلس ودخل أسبعة Eciga حيث التقى هناك بجيش من المسيحيين بلغ عدده 30,000 مقاتل بقيادة دنونة Don Nuno وانتهت المعركة بانتصار بني مرين⁽²⁰⁾.

الجواز الثاني : كان سنة 1277، إذ أغار الأمير على اشبيلية عاصمة ألفونسو

العاشر⁽²¹⁾ ممّا أدّى إلى تخريب ضواحيها كما تعاون مع سلطان غرناطة محمد الثاني الفقيه في شن الغارات على عدد من مدن جنوب اسبانيا مثل شدونة⁽²²⁾.

الجواز الثالث : كان تلبية للدعوة التي وجهها إليه ألفونسو العاشر لمساعدته في

إخماد ثورة ابنه شانجه وشارك معه في حملة حربية سنة 1283 على المناطق التابعة لابنه.

الجواز الرابع : كان سنة 1285 إثر تولية الملك سانشو الذي عاجله الأمير بغارات

كاسحة شملت اشبيلية وقرمونة وجيان وغيرها ممّا اضطرّ الملك الأسباني إلى طلب الصلح، وقد قبل الأمير الصلح بشروط :

- أن ترفع الضرائب عن المسلمين الذين يعاشون القشتالين .
- أن يكف سانشو عن التدخل في علاقات أبي يوسف مع ابن الأحمر.
- أن يعامل تجّار المسلمين لدى المسيحيين بمعاملة تليق بكرامتهم.
- تدفع إلى السلطان الكتب التي حصل عليها المسيحيون منذ استيلائهم على مدن الأندلس.

فيما يتعلّق بالشرط الأخير فإن الأمير توصّل بثلاثة عشر حمل من الكتب وهي بدون

(17) الذخيرة السننية، ص 159.

(18) روض القرطاس، ص 225، ابن خلدون، العبر، ط : 192.

(19) روض القرطاس، ص 226.

(20) الاستقصا، 3 : 41.

(21) روض القرطاس، 233.

(22) المصدر السابق. 236 - 237.

شكّ لا تشكل إلا قليلا جداً من الكتب التي استحوذ عليها المسيحيون.

لكن لم يكن بإمكان السلطان المريني أن يذهب إلى أبعد من هذا نظرا للأوضاع الداخلية بالمغرب واضطراره إلى الرجوع إليه.

ثانياً : التدخل المريني في الأندلس في عهد أبي يعقوب يوسف :

(1286 - 1306)

سار في نفس النهج الذي سار فيه أبوه، لكنّه فوجيء بنقض سانشو للصالح المبرم مع والده، بل والاعارة على الثغور المرينية بالأندلس فما كان من الأمير إلا أن أمر قائده بالأندلس بشن غارات على قشتالة، وفي سنة 1291 أخذ الأمير يستعدّ للعبور للأندلس لكنّه فوجيء بتحالف يضمّ ملك غرناطة وقشتالة وأراجون، ممّا أفسد عليه خطه، وهاجم هذا الحلف القوات المرينية، واستولى على ثغر طريف، وكان ملك قشتالة قد وعد أمير غرناطة بتسليم طريف إليه بعد سقوطها، ولكنّه خلف وعده، بل واحتفظ أيضاً بالحصون الغرناطية التي كان محمد الثاني قد سلّمها إليه في مقابل تسليمه قاعدة طريف. ممّا أدّى بالأمير إلى طلب الصلح من السلطان المريني، ويطلب منه أيضاً مساعدة لاسترداد طريف⁽²³⁾.

ثالثاً: التدخل المريني في الأندلس في عهد أبي الحسن (1331 - 1351) :

خصّص ابن مرزوق الباب 38 من كتاب المسند لأعمال الجهاد التي قام بها أبو الحسن⁽²⁴⁾، ومن خلال هذا الباب نستطيع أن نستخلص صورة تقريبية لتدخل السلطان بالأندلس. طلب ابن الأحمر من السلطان المريني أن يساعده على استرجاع جبل طارق المحتلّ من طرف القشتاليين منذ سنة 1309، فأمره فعلاً بجيش تحت قيادة ابنه أبي مالك وكان عدد 5000 مقاتل وقد تمكّن فعلاً من استرجاع جبل طارق غير أن أبا مالك اغترّب بهذا الانتصار وراح يناوش القشتاليين في عقر دارهم ممّا أدّى بهم إلى قتله وإلحاق هزيمة بجيوشه.

ولم يتأخّر أبو الحسن عن مواصلة عمل ابنه فهياً أسطولا، شاركت فيه قطع من أسطول الحفصيين وبلغ مجموع القطع نحو مائة تجمعت بميناء سبتة تحت قيادة محمد العزفي، والتحم الأسطولان في معركة سريعة انتهت بانتصار الأسطول المسيحي، وانتقل أبو الحسن بنفسه في ستين ألف جندي حيث شرع في محاصرة طريف برّاً وبحراً، غير أنّه لم يوفق هذه المرّة وأصيب بهزيمة اضطرّ معها إلى الرحيل إلى المغرب وانتهاز القشتاليون فرصة اندحار الجيش المريني فزحفوا على الجزيرة الخضراء، وحاول السلطان المريني تقديم المدد إلى الجزيرة لكن لم يكتب له التوفيق

(23) المصدر السابق. 248، ابن خلدون، العبر، 7 : 216-217.

(24) المسند، ص 387-395.

أيضا. وقد كانت هزيمة طريفة خطيرة جداً إذ كادت أن تؤدي إلى استيلاء القشتاليين على كل الأندلس (25).

والواقع أنّ هذا الفشل كان منتظرا إلى حد كبير وذلك بفعل تشتت القوات المرينية بأقطار المغرب العربي بحكم الحركات التي كان يقوم بها المرينيون آنذاك، بالإضافة إلى أن القشتاليين كانوا يتلقون الامدادات البحرية من جنوة والبرية من البرتغال، بالإضافة إلى ضعف معنويات الأندلسيين الذين يرون بأعينهم كيف يستسلم أمراؤهم للممالك المسيحية بالإضافة إلى النكبات التي كانت تحلّ بهم باستمرار، وتغرس في نفوسهم بذور اليأس، وألا أمل في محاربة الأتقوياء.

التدخل المريني في عهد أبي عنان (1305 - 1357)

على العموم كانت العلاقات بين أبي عنان المريني ويوسف الأول سلطان غرناطة علاقات حسنة، ومبنية على التفاهم، فقد بعث أمير غرناطة وزيره وسفيره لسان الدين بن الخطيب إلى فاس لاعطاء صورة صادقة عن أحوال المسلمين بالأندلس مع التأكيد على المعونات الحربية التي يقدمها السلطان المريني للجهاد بالأندلس⁽²⁶⁾، فبادله أبو عنان المشاعر الطيبة، وعمل من جهته على توثيق هذه الصلة، فأولى ثغر جبل طارق المزيد من عنايته، باعتباره نقطة الاتصال الوحيدة بالأندلس، وتبودلت الرسائل بينه وبين يوسف الأول في شتى المناسبات، كما أبقى سلطان غرناطة على تقليد قيادة الجيش لأبناء عم بني مرين (بنو العلاء)⁽²⁷⁾.

بقي لنا بعد هذا أن نسأل: ما هي النتائج المترتبة عن هذا التدخل؟ هل حقّق أهدافه بالحفاظ على حدود مملكة غرناطة؟

نشير أولا إلى أنّ التدخل المغربي بالأندلس كان من قبيل "إنقاذ ما يمكن إنقاذه" فجل الثغور كانت قد سقطت بالفعل، والاسبان ركّزوا أقدامهم هناك، ولم تبقى إلا غرناطة حسبا ينخره الخلاف على السلطة من جهة والتنهجّ الاسباني من جهة أخرى، وبعبارة أخرى فإنّ كلّ شيء بالأندلس كان يسير نحو مصير محتوم، سواء تدخل المغرب أم لم يتدخل.

ونشير ثانيا إلى أنّ تدخل المغرب المستمرّ بالأندلس سوف يؤدي إلى إنهاك قواته وبالتالي عجزه على الاستمرار فيه، بل ستعجز هذه القوات على المحافظة على الأندلس والاستقرار داخل

(25) ابن الخطيب، اللهجة البدرية، ص: 95.

(26) علي حامد الماحي، المغرب في عهد السلطان أبي عنان المريني ص 24-114.

(27) محمد كمال شبانة، يوسف الأول ابن الأحمر سلطان غرناطة، ص 147.

المغرب نفسه . ونشير أخيرا إلى أنَّ الأندلسيين كانوا واعين كلَّ الوعي بأنَّ سلامة حدودهم لن تتأثري إلا بالاعتماد على النفس أولا وأخيرا لهذا لم يكونوا مطمئنين لأية قوّة من القوآت الموجودة على الساحة ، ولهذا أيضا سلكوا سياسة المرونة تجاه هذه القوآت، فقد كان الاندلسيون يعلمون جيّدا نقط ضعفهم، بل إن الكثير منهم استشعر النكسة قبل وقوعها بوقت كبير، فهاجر قبل أن يدخل الاسبان إلى مدينته.